المحاضرة ١٢

القصة في الأدب العربي

لم يكن في قديم الادب العربي للقصّة شأن يذكر ، وكان لها مفهوم خاصّ لم ينهض بها ، ولم يجعلها ذات رسالة اجتماعيّة أو إنسانيّة ونوجز القول في عيون الأدب العربي قديماً ممّا يمتّ بصلة للقصّة ، نعرّف بها ونتحدّث عنها من وجهة نظر مقارنة ، وهي" ألف ليلة وليلة "، والمقامات ، ورسالة التّوابع والزّوابع ورسالة الغفران ، ثمّ قصّة حيّ بن يقظان ففي الكلام عن" ألف ليلة وليلة "فهي مدوّنة في عصور مختلفة ، ومن المقطوع به أنّ الكتاب في أصله كان معروفاً لدى المسلمين قبل منتصف القرن العاشر الميلادي ، ويشهد المسعودي وابن النّديم أنّ الكتاب في أصله مترجم عن الفارسيّة ، ولكنّ المسعودي يقرّر بأنّ الأدباء في عهده تناولوا هذه الحكايات بالتّنميق والتّهذيب ، وصنّفوا في معناها ما يشبهها ، فأصل الكتاب كان مدوّنا ، ثمّ نزل الأدب الشّعبي" الفولكلوري "فغيّر منه وزيد فيه ، فلا ينبغي إنكار تأثير الآداب الأُخرى في نشأته ونموّه بحجّة أنّه من الأدب الشّعبي ، الّذي تمحى فيه الحدود وتتشابه الآداب دون حاجة إلى تلاقٍ تاريخي هذا . وحكايات" ألف ليلة وليلة "ليس لها طابع خلقي تعليمي ، إلّا فيما تحتوي عليه من قصص الحيوان ، وهي قليلة نسبياً ، أمّا بقيّة القصص فهي زاخرة بالمخاطرات وعالَم السّحر والعجائب ، والرّابطة بين حوادثها مصطنعة ، تمتدّ ـ عن طريق التّساؤل ـ في الزّمن كما يشاء القاصّ ، فالخيط الّذي يربط الحكايات بعيد عن فنّ القصّة في معناها الحديث ، وهذه القصص مدينة في نشأتها إلى أصول هنديّة فارسيّة ، فهي تدخل

في عداد القصص المترجمة في الأصل أمّا الحكايات القصصيّة العربيّة الأُخرى الّتي نتحدّث هنا عنها فهي أصيلة النّشأة وغير مترجمة ، ومنها المقامات ، والمقامة في الأصل معناها المجلس ، ثمّ أُطلقت على ما يُحكى في جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنّيّة ، وموجز هذه الأصول أنّها حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامي ، وتحتوي على مغامرات يرويها راوٍ) وهو عيسى بن هشام (في مقامات بديع الزّمان ، و)الحارث بن همّام (في مقامات الحريري ، عن بطل يقوم بها هو) أبو الفتح الاسكندري (في أكثر مقامات الهمذاني ، و)أبو زيد السّروجي (في مقامات الحريري ، وقد يكون هذا البطل شجاعاً يقتحم أخطاراً وينتصر فيها ، وقد يكون ناقداً اجتماعياً أو سياسياً ، وقد يكون فقيهاً متضلّعاً في مسائل الدّين أو مسائل اللّغة ، ولكنّه في حالاته كلّها تقريباً متسوّل ماكر ولوع بالملذّات ، مستهتر يحتال للحصول على المال ممّن يخدعهم ونجد أنّ في المقامات وصف للعادات والتّقاليد الّتي تسود الطّبقات الوسطى والدُّنيا في كثير من المجتمعات الإسلاميّة ، وكان يمكن أن يكون هذا الجنس أخصب جنس أدبي في العربيّة ، وأن يقوم ـ في نقد العادات والتّقاليد والقضايا الاجتماعيّة ـ مقام القصّة والمسرحيّة في الآداب الغربيّة ، لولا أنّه سرعان ما انحرف عن النّقد الاجتماعي في صورة جديّة إلى المماحكات اللّفظية والألغاز اللّغوية والأسلوب المصطنع الزّاخر بالحلية اللّفظيّة الّتي لا تعود على المعنى بطائل يذكر وقد أثّر الأدب العربي ـ فيما يخصّ جنس المقامات ـ في الأدب الفارسي ، وكذلك أثّرت المقامات العربيّة في الأدب الأوروبي تأثيراً واسعاً متنوّع الدّلالة ، فقد غذّت هذه المقامات قصص" الشّطّار "الاسبانيّة بنواحيها الفنّيّة وعناصرها ذات الطّابع الواقعي ، ثمّ انتقل التّأثير من الأدب الاسباني

إلى سواه من الآداب الأوروبيّة **أمّا القصص العربيّة الأصيلة** في عصرنا ، فقد أخذت تستقلّ عن القصص الغربيّة في موضوعها ، وبدأت تعالج مشكلات بيئتنا وعصرنا أو تشيد بماضينا القومي والوطني ، وإن كانت ـ مع ذلك ـ متأثّرة في نواحيها الفنّيّة بالآداب الكُبرى والتيّارات الفنّيّة العالَميّة والّذي ننبّه إليه هنا أنّنا تأثّرنا **بالرّومانتيكيّة** في منهج قصصها التّاريخيّة ، وفي وصف النّواحي العاطفيّة الذّاتيّة ، ثمّ في الإشادة بالماضي القومي أو الوطني هرباً من الحاضر ، ورغبة في تغييره إلى مستقبل خير ، عن طريق الإصلاح لا الثّورة ، فلم تتأثّر الرّومانتيكيّة في دعوتها الاجتماعيّة الثّائرة إذا لم تكن الظّروف ـ بعد ـ مهيّأة لتلك الثّورة ومن أمثلة التّأثّر الرّومانتيكي بما ذكرنا من اتّجاهات نذكر القصص التّاريخية الّتي ألّفها) جرجي زيدان (، فهو يقف في منهجها الفنّي أثر) وولتر سكوت (أبّ القصّة التّاريخيّة الرّومانتيكيّة في أوروبا ، ولكنّه لا تظهر في قصصه نزعة الإشارة بالماضي العربي القومي على نحو ما كان يفعل الرّومانتيكيّون **ومفهوم التّاريخ** في العصر الحديث هو بعث الحضارات والمدنيّات في عصورها ، بخصائصها الإنسانيّة ، وبما في ذلك فيها الشّعوب من جهد لا بوصفها فترات منقطعة الصّلة بالحاضر ، بل بوصفها لحظة من الامتداد الزّمني المتّصل الّذي تشترك ـ في العمل على امتداده وتنوّعه ـ جهود الشّعوب المختلفة ، ولكنّه يتّخذ طابعاً خاصّاً بكلّ عصر وكلّ أُمّة ؛ نتيجة الهضم والتّمثيل للماضي الإنساني الحضاري ، ونتيجة إدراك كلّ شعب أو أُمّة للموقف الإنساني إدراكاً يتوقّف عليه تخلّف الأُمّة أو تقدّمها ، وقد يترتّب على هذا الإدراك تقدّم الإنسانيّة جمعاء وإذن للتّاريخ ـ في مفهومه الحديث ـ **نواحٍ علميّة** لبعث الحضارات وللكشف عن جهود الشّعب فيها بالاعتماد على المصادر بعد

تمحيصها ، و**نواحٍ فنّيّة** في ملء فجوات هذه المصادر بما يكسبها الحيويّة وقوّة التّصوير ، ثمّ في عرضها عرضاً فنّيّاً للكشف عن الموقف الإنساني في الفترة التّاريخيّة المعيّنة ، مع بيان رأيّ المؤلّف فيها ، بوصفها حلقة من جهود الإنسانيّة المتتابعة الدّائبة في بحثها عن الكمال وقد اكتمل معنى التّاريخ الحديث في القرن التّاسع عشر ، بفضل الرّومانتيكيّين ؛ وذلك لعنايتهم بالفرد وشؤونه ، ونشوة مؤرّخيهم إلى ماضي الإنسانيّة ، كأنّه ماضيهم هم ، واهتمامهم بتاريخ الفكر والحضارة للشّعوب ، لا بتاريخ الملوك والارستقراطيّين كما كانت عليه من قبل **وتلتها ثانياً المدرسة الواقعيّة في التّاريخ** ، وهي الّتي تشرح الحقائق في ضوء جبريّة الظّواهر الاجتماعيّة والمادّيّة ، كما فعل) تين (على حسب مبدئه الّذي يشرحه قائلاً" : أعثر على حالات البلد والإقليم والجنس والبيئة والتّربية والعادات الّتي عاش فيها إنسان ما ، وأستنتج منها ، موقناً طبيعة موهبته وأعماله ، وهؤلاء موضوعيون في شروحهم ، يثقون في العلم وفي مناهجه ونختم كلامنا عن الأجناس الأدبيّة النّثريّة بجنس أدبيّ ثانويّ تردّد بين الشّعر والنّثر في الأدبين : العربي والفارسي وهو **جنس المناظرة والحوار** ، وهو قالب فني عامّ تتغيّر أنواعه ، وهو لذلك من الأجناس الأدبيّة الّتي تدقّ فيصعب تحديد معالمها وتمييز مواطن التّلاقي التّاريخيّة فيها بين الآداب .